

اغتراب

زياد كمال حمادي

أفكر بهذه المتاعب . لكن لا . . . لا بد أن نعود إلى الحارة التي ولدنا وعشنا فيها . . . ربما ابني « راضي » يستطيع أن يشتري هنا . . . يا لهم من سماسة ، لا بد أن يعوضونا عما ستفقدته . . لكنني مستأجرة ولست مالكة . . هل يطردوننا ؟؟

ترتعش ، تخنق الآهات في صدرها ، تبكي ، تمشي الدموع على خديها كأنها لآلئ من ماء ونار . . تضع يدها على رأسها المتصدع ، لم تشعر إلا وهي تحدث نفسها : « . . يا للكلب ، طلب مني أن . . . ! ؟ حتى يدفع لي وأستلم المسكن المخصص لنا . . لا لن أبيع جسدي . لكن البلدية تطلب / عشرة آلاف ليرة / كي تسلمني المفاتيح !! ألا يفرقون بين الذين يملكون ، والذين لا يملكون ؟ !

مسحت دموعها بمنديل كان في جيبتها ، تأوهت ، نظرت إلى أولادها ، أعمامهم لم يدفعوا لنا قرشاً واحداً ، رحم الله « أبو راضي » مات وهو يعمل ، لو أنه انتبه عندما كان يقود قطار المناورة^(١) ، لما كنا الآن في هذا الوضع . غطت ابنتها وقبلتها ، لكنها ما زالت ترتجف ، لعن الله مأمور المساكن ، هو الآخر أراد مني أن . . ؟ ! كلاب . . كلهم كلاب . . ولا واحد يريد مساعدتي دون مقابل .

في ليلة شتاء مطيرة ، والبرد يدك أجسادهم ، نام الأولاد كأغصان شجرة عارية . إلا أن أمهم ما زالت ساهرة تنظر إليهم حيناً ، وإلى ورقة الأنداز بالإخلاء جبراً حيناً آخر ، وتعيد قراءتها للمرة الألف !

« انبتوها . .
اسمعوا صلصال الريح
عشرة . .
خمسة عشر يوماً
نفذوا الأوامر . .
اخلوا الدار ، تفرقوا !! » .

ينفجر صداع أليم ، يتغلغل ، يكبر الرأس ويصبح أكثر ثقلًا من الجسد النحيل ، تدور بها الدنيا ، يعاودها شبح القلق ، يسرق النوم من أجفانها الذابلة رعشة الورد والياسمين .

انهم يجربون الحي ويهجرون ساكنيه!! سيعمرون دوراً عامرة يسكنها المتفرقون . ياه . . ه . . ه . . كم ستصبح المنطقة جميلة . . لكن يا حسرة . . لماذا أفكر فيها ؟؟ لن أستطيع العودة إليها ؟!! منطقة في وسط المدينة لا بد أن تكون غالبية لا بد أن نعود إليها . . كم أنا مجنونة ؟؟ بدلاً من التفكير بطعام الغد ،

ولم يكذب يلفظ ذلك ، حتى خرجت الأم من الباب مسرعة وهي تتوسل :

- أجلسوا الخراب ، الله يستر عليكم .

أجابها رئيس العمال : « غير ممكن » .

بكت بمرارة ، سقطت على الأرض تتمرغ في التراب ، وهي تردد :

- خربتم بيتي ، الله يخرب بيوتكم .

رق قلب رئيس العمال . برق شعاع المسافات بين الدارين ، دار اليتامى ، وبيته الذي لا يملكه . وفجأة مر ضوء المنفى في ذاكرته ، فقال لها :

- حسناً ، سأؤجل خراب الدار حتى يوم غد ، فانقلي أغراض البيت .

أجابته بصوت بلبل مجروح : « وأين سنسكن ؟؟ »

احتر هو الآخر ، كان يعرف ما الذي يجري ، فقد قامت البلدية بهدم المنازل ضمن مشاريعها التجميلية ، وأعطت لسكانها مساكن شعبية بديلة . . كثيرون هم الذين لم يستطيعوا تأمين الدفعة الأولى لاستلام مساكنهم /يا لهم من تعساء/ يطردون من منازلهم لأنهم لا يملكون إلا رعشة الحلم البعيد جداً كطيور الاغتراب .

داخ الرجل ، بينما كانت المرأة تنظر إليه وكأنه صورة نبي ، تنتظر ألا ينطق عن الهوى ، إلا بوحي يوحي ، وقال لها متأثراً :

- اطمئني . . لن أمر بخراب الدار مادمتم فيها ، ولتخرب الدنيا فوق رأسي أيضاً .

التفت إلى رفاقه ، أمرهم بالعمل بعيداً ، بينما جرحرت المرأة همومها عائدة مخدرة الرأس . تفرست في ساحة الدار الواسعة ، والغرف العتيقة ، عدة أسر كانت تسكن مع بعضها ، وكأنهم عائلة واحدة في خان أثري ، أما الآن فلم يبق سوى هذه الأسرة التي لم يعد لها مأوى !! ماذا بإمكانها أن تفعل ؟ ولا أحد يساعد أحداً ؟

برقت فكرة خبيثة ، تلمست تفاحة الاشتهااء ببطء شديد ، حلمت بالفجر ، والورد ، والشواطئ البعيدة ، شعرت أنها كطائر الاغتراب عندما يملق فوق مدن الأحزان محطم الجناح ، كانت تسرح ، وتتجول بعينين متقدتين ، وتتساءل ، من زرع الخنجر في قلب امرأة جميلة ؟؟ وأباح مجامعة الأحلام ؟؟ ريبال « الأخطل » لم ينفع ، من يقرأ ؟؟ ومن يسمع ؟؟

نظرت في المرأة الموضوععة على طرف الشباك . . . ما زلتُ شابة ، السنون لم تأخذ من شبابي الكثير ، لو أتي . . لاستطعت . . . وفجأة حدثها زائر الليل :

- تمتعي . . أتركين شبابك يتهدم ؟؟ لا تتمنعي . . كل الرجال مثل بعضهم . . .

شردت ، نظرت إلى السماء ، وجدت القمر كدموعها ينساب بين الغيوم مختالاً ، وصوت السيارات يزيد المدينة ضجيجاً ، قالت له :

- غداً سأحسم الأمر .

وبدأت تتزين كأبي عروس في شهر العسل ، سأقتل الزمن ، والفقر ، والأشواك ، لو أكملت دراستي لما أصبحت على ما أنا عليه ، زوجوني ولم يتركوني أقدم امتحان « البكالوريا » يا لهم من جهلة ، حطموني ، اني أذكر دروسي جيداً « طبائع العمران » لابن خلدون ، وفلسفة « ابن رشد » ، وأشعار « الأخطل » كنت أحفظ دروسي بشغف ، كم أبكتني بطله « الريال المزيف »؟ يا للعبثية ، أحلم بأشياء مضت كسحابة صيف ، ما هذه الليلة الملعونة ؟؟

احترت ، قضت ليلتها تفكر كقائد في قلب معركة ، وعندما بدأت الديكة تغني صباحاً ، رجف قلبها خوفاً ، لا بد أن يصل الخراب الينا !! أحست بصداع شديد ، وبوخزات ألم خلف أذنيها ، ولم تكند تصل إلى قرار حتى سمعت صوت « التراكس » يقترب ، ويتعالى صياح العمال ، والانهدامات ، تضايقت ، شعرت بانهباء يفقدها رشدها ، فلم تجد سبيلاً إلا يقاظ ابنها الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة :

- راضي . . قم يراضي . . قم . .

فرك عينيه ، نظر إليها وأجفانه الناعسة مبهوتة ، ثم سألها بخوف :

- هل وصل الخراب الينا ؟ !

بكت ، انهارت ، سقطت على الأرض ، تصاعد صوت مؤلم كأنه جشجرة الموت ، اقترب صوت « التراكس » أكثر ، سمعا صوتاً ينادي :

- أصبحت الحارة خراباً وما زلتن هنا ؟ !

سأله آخر : « من معك ؟؟ » .

أجابته متلعثماً : « أمي . . وإخوتي » .

فجأة انعكست رؤياها المستباحة . أدركت أن التشرذ أمرّ
الأميرين سوءاً ، ولهذا فقد اختارت أقلها عاقبة ، نادى ابنها
وذهباً معاً الى المسكن المخصص لهم ، كانت الدور المجاورة ،
والشوارع الفرعية في الحي تغص بالسكان الجدد ، وأغراض
البيوت متجمعة ، متناثرة ، والجميع مشغولون بعمليات النقل
المرهقة . دخلت البناء وتفحصته جيداً . الباب الأول من جهة
اليسار بابهم ، الشرفة الرئيسة غير مرتفعة ، ومطلّة على
الشارع . حدثت نفسها : « العملية سهلة » . ودون تردد قالت
لابنها :

- اقفز يا راضي وادخل الشرفة ! ..

- اكسر القفل وافتح الباب !

قفز « راضي » وفتح الباب . دخلت الأم قصر الخيرة كقائد
منتصر بعد معركة بقاء عنيفة . تنشقت رائحة الانتصار ، وقالت
له :

- أذهب وانقل أغراض البيت . . ولا تنس اخواتك .

أحضر « راضي » أغراض البيت ، وإخوته ، تبعاً ، وقلبه
يرتعش خوفاً : « أننا نسرق ، والسارقون والسارقيات في النار .
ماذا سيفعلون بنا ؟؟ » . لم يجد جواباً لتساؤلاته . وفي آخر نقلة
بيدقية حوصرت القلعة في الرقعة البيضاء ، وكذلك الملك
والوزير . هجمت البيادق السوداء . . اختلطت الساحة
بالأحصنة ، والجيران ، سألها أحدهم :

- كيف تجرؤين على اغتصاب المسكن وتعلمين أن . . .

تقاطعها قائلة : « السجن خيرٌ من التشرذ » .

وفجأة رعدت السماء بقوة . . أطبق الحصار على الملك في
منطقة الدفاع . . بانث الانشقاقات البيض معلنة عن مطر
غزير ، ويرد ، فتفرق اللاعبون ، وظلت واقفة ، متجمدة ،
تنتظر صحو الربيع .

(١) قطار المناورة: عربة تصليح القطارات والشاحنات المعطلة في طول الخطوط الحديدية .

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

بفدّم

في رحاب الخيام

شعر

الشيخ عبد الكريم صادق

(١٨٩٠ - ١٩٧٢)

تحقيق وتقديم : حبيب صادق

حسن العواقب

(رواية)

الهوى والوفاء

(مسرحية)

تأليف زينب فواز

(١٨٤٦ - ١٩١٤)

تحقيق فوزية فواز

* * *